علي الاكبر

(ثالث سهم في كنانة الحسين)

بقلم الاستاذ أحمد صندوقه
دمشق : سوريا

والله إن امرءاً يمكن عدوه من نفسه يعرق لحمه ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، لعظيم عجزه ضعيف ماضمت عليه جوانح صدره . أنت فكن ذاك إن شئت . فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية ، تطير منه فراش الهام وتطيح السواعد والاقدام ويفعل الله بعد ذلك مايشاء .

علي عليه السلام

فيما الحسين يجتاز طريقه من مكة الى الكوفة ـ مستجيباً الى دعوة أهلها ، والافكار تتنازع في نفسه، فتذهب بها غير بعيد الى ماجرى له في المدينة في مجلس الوليد بن عتبة ثم في مكة مع رسل عمرو بن سعيد الاشدق ، ثم تعود به القهقرى فيرى مافعل هؤلاء الذين دعوه اليهم ليبايعوه بالخلافة ، يرى مافعوه بأبيه واخيه ومالقيامنهم من العنت والارهاق بعصيانهم وخذلانهم . ثم تعود به الذاكرة الى عهد جده فيسمعه وهو يقول فيه وفي أخيه مايقول : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » ، ثم يوصي ويؤكد الوصية بقوله : « انى تارك مإن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي » . ثم ترجع به الى حاضرة ، فيرى نفسه بين اثنتين ، اما بيعة فيها خسارة دين ودنيا ، واما امتناع وفيه مافيه من أنواع المحن والبلاء أخفها الاغتيال في الحرم واستباحة حرمته المقدسة فيقول : [وايم الله لو كنت في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني والله لايدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي] . وفيما هو يسير على ظهر جواده خفق خفقة ثم انتبه وهو يقول : انا لله وانا اليه راجعون والحمد لله رب العالمين يكررها مرتين أو ثلاثاً ، فيلتفت اليه ابنه علي مستفسراً فيحدثه بقوله : عنّ لي في خفقتي فارس على فرس وهو يقول : القوم يسيرون والمنايا تسير اليهم ، فعلمت انها أنفسنا نعيت الينا ، فيقول علي : السنا على الحق ؟ فيجيبه بلى والذي اليه مرجع العباد ! . وعند ذلك تنفرج شفتا الشاب من هذه الكلمة العظيمة وإمارات السرور والطمأنينة بادية عليه : « إذن لانبالي ان نموت محقين » .

وان تعجب فعجب صدور مثل هذه الكلمة التي تدل على كل مافي النفس من رغبة في الشهادة، ولاسيما صدورها من فتى لم يجاوز الثامنة عشرة ، وفي عصر يجر اترابه ولداته اذيال اللهو واللعب ، يشجعهم على ذلك ما يغدقه عليهم الملوك والامراء من الجوائز صرفاً لهم عن التفكير في السياسة والخلافة . ولكنك إذ تفكر في قائلها وتستعرض حياة والده وجده ، ومابديا من ضروب التضحية والبسالة في سبيل هذا الدين الحنيف ، وفي سبيل المحافظة على الشرف والاباء ، لاتلبث ان تطرح العجب وتقول : ذرية بعضها من بعض . ومضى الفتى في ركاب ابيه ، والشوق يحدوه ، وكان في لفيف من اعمامه وابنائهم ، ازهار بني هاشم العطرة والنخبة الصالحة مما ترك محمد « ص » لقومه ، قرناء كتاب الله ، لايفترقون عنه ، حتى يردوا معاً عليه حوضه يوم القيامة ، يحدوه الشوق الى الشهادة التي بشره بها ابوه فلم يعد يفكر في غيرها لانها كانت اجمل احلامه واقصى متمناه منذ شب عن الطوق ، وراى من اعداء اسرته وشريعته من التحكم فيها والامعان في البغي والفساد مالايرضى به اي امرىء تجري في عروقه دماء التقوى والنبل والشرف والاباء . اي يوم يذكر من ايام عداته واليها يعرض عنه صفحاً . . . يقرأ في مخيلته ايام الجاهلية عند ماذر قرن الشنآن والعداوة من قبل امية نحو هاشم يتلو ذلك مابدا من حرب لعبد المطلب

ويعقبه ما ظهر من صخر لأبي طالب ، ثم ما اجلب على محمد لاطفاء نور الرسالة، ثم يقارن بين اعمال هؤلاء وهؤلاء فيرى ما طبعت عليه نفوس آبائه من رحمة ولين ، ونفوس خصومهم من حقد وقسوة ، وكيف تصطرع المبادئ وتضحي النفوس على مذابحها متى ظهر امر الله وعلت كلمته . وفي كل دور من ادوار هذه الرواية، لايدخر آل امية وسعاً في تسديد سهامهم لآل هاشم . ففي بدر، يمتنعون عن مبارزة الانصار ويطالبون اكفاءهم من بني هاشم . وفي احد ، يمثلون بحمزة مثلة لم يحدث عن مثلها تاريخ الجاهلية ، وهكذا دأبهم في صراعهم مع الرسول حتى اضرع الله خدودهم يوم الفتح . وعاد على رئيسهم بخزي دائم ذلك العفو الذي عدوه من الرسول تشريفاً له ورفع منزلة [من دخل دار ابي سفيان فهو آمن]، ورحم الله العباس حين يقول : [والله لا يناجي ابن اخي غيري سائر اليوم] ، ورحم الله المتنبي حيث يقول (وكقتله ألا يموت قتيلا) ثم رأى الآية تنعكس فأعداءها ثم يتظاهرون بالاسلام فيعصمون دماءهم ثم يتدرجون في تداخلهم في شؤون الدولة باساليب عميت على سواد الامة ، واغضى عليها بعض كبارها او ساهموا في صياغتها لموافقتها ما في نفوسهم من رغبات واماني ، واذا بخصوم الاسلام بالامس ، يتصدون للدفاع عنه اليوم ، ثم يتصدون للسيطرة على الامة باسمه ، فيقسمونها الى فريقين متعاديين ، ثم يثيرونها حرباً يستطير شررها ، وفي خلالها يحرصون على الفتك ببني هاشم فهذا مروان ، يتربص بعلي الدوائر في الجمل . وهذا معاوية، يغري بعلي وذويه افتك الناس كعمر وبسر وغيرهما ، ويلح ويعد بالجوائز ، ويكرر قوله في علي [أما لهذا الرجل من يقتله مبارزة او غيلة او في عرض العسكر] . ثم تطوى صفحة ملك بني هاشم بأعجب ما شاهده التاريخ من مآسٍ وغرائب، ويملك خصومهم فلا يدخرون وسعاً في الانتقام فزياد يكتب للحسن (ان اهنأ لحم احب ان آكله للحم الذي انت منه) . والزعيم الأكبر، الذي ملك الامة باسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسن لعن اخيه على المنابر ، ويتتبع شيعته بانواع القتل ، واخيراً يحتال في سم الحسن ، ويقابل الحسين بقوله : [بدنة يترقرق دمها والله مهريقه] ، فأي امل في الحياة يبدو لمسلم بعد اغتيال الحسن ؟ وأي معنى للحرية والاباء بعد الاكراه على مبايعة مثل يزيد ؟ . هذه الصور التي تراءاها في مخيلته مرت سراعاً فولدت فيه يأساً وعزماً ، ومقتاً وحباً ، يأساً ومقتاً لهذه الحياة التي لا يرضى بها إلا ضعاف العقائد والعزائم وعزماً وحباً للشهادة التي جعلها الله رداءاً لأوليائه من ان يترددوا في مساوي الفتنة والهوان .

لها الله من ذكريات تتالت على نفس هذا الشاب وهو يسرح في وادي خياله ، ويقطع المهامه والبيد بين الحجاز والعراق ، في ركب من المؤمنين ، لا يتجاوز المئة والثلاثين يتقدمهم غطريف من آل عبد المطلب ، وقد تدرعوا القلوب وتجلببوا السكينة وساروا ووحوش الفلاة تقفو إثر خيولهم وعقبان الجو تحلق فوق رماحهم ، وقد عقد الغبار عليهم سرادقاً قاتماً تلمع فيه اسنة وصفاح ، في حدودها الموت الزؤام .

ويدور الدهر دورته ، فيرى الشاب تأويل رؤيا ابيه ؛ فينقلب المستصرخ الى هازئ ، والراغب الى راهب خاذل محارب ،انه المال يفعل في النفوس مالا قبل لغيره بفعله وانما الرؤساء اذا أشبعت بطونها منه لا تبالي ان تزج مرؤسيها فيما يزهق ارواحهم ويفسد شرفهم وضمائرهم وانما الامهات يحرصن على طلب العافية لأولادهن ولا يدرين انهن يبعدهم عن العافية بعد الارض عن السماء . ولكن ما العمل والقضاء قد حم والطرقات اخذت والمسالك سدت واذا بهذه العصابة القليلة تقف وجها لوجه امام ثلاثين الفا [من اولئك الذين بايعوه بالأمس] وهم يخيرونه بين امرين [النزول على حكم ابن زياد او القتال] ، هنالك تسابق اصحاب الحسين على الموت متهالكين. وفي هذه الفترة تقدم الشاب من ابيه يستأذنه في القتال . وهنا نتساءل هل تردد الحسين في الاذن لولده بالقتال وهو الذي كان اشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسول الله (ص) حتى ان من اشتاق الى رؤية الرسول من اهله نظر الى وجه علي ؟ ام اذن له فوراً ويعلم انه اول قتيل طالبي في هذه المجزرة ، هل قسا قلب الحسين فهو يدفع بولده الى هذا الخضم الزاخر الذي يموج بالجور والطغيان ، الى هذه القلوب المتحجرة التي تتسابق لنيل الجوائز ، الى هذه القسي الموترة والرماح المشرعة والسيوف المشهرة التي تتعطش لشرب هذا الدم الزكي ، لا لشيء سوى ارضاء الولاة الغاشمين .

واذا كان الولد فتنة لأبيه فهو يفضله على من سواه وكثيراً مايؤثره على نفسه فيخاطر بسمعته وراحته بل حياناً يخاطر بدينه ويعادي الناس حتى اهله واخوته كل ذلك في سبيل ولده فما الذي دعا الحسين لأن يسمح لولده ان يكون اول ضحية هاشمية من ضحايا كربلاء .

يحدثنا التاريخ عن مغامرات جمة قام بها الآباء في سبيل ابنائهم فمن بين ناجح ومخفق . ويحدثنا عن كثير ممن نجحوا في محاولاتهم . ولكن جماجمهم كانت دعائم ذلك النجاح ويحدثنا عن كثير ممن اخفقوا فخسروا انفسهم دون ان يفيدوا اولادهم . لماذا سعى معاوية السعي الحثيث وقد نيف على الثمانين فقتل من قتل وسم من سم ؟ لندقق في وفاة سعد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن خالد والحسن بن علي وغيرهم من كبار الصحابة ! لندقق في بذله الاموال واحضار الوفود ومعاناة السفر الى الحجاز ! ولندقق في اضرام الفتن بين الامويين انفسهم لنرى ان الدافع لمعاوية في ذلك انما هو توطيد الملك لولده . ثم لندقق في موت مروان ، فنرى اسبابه حرصه على استخلاف ولده ، وهكذا فلندقق فيمن بعده من ملوك امويين وعباسيين فنرى مبلغ حرص كل منهم على استخلاف ولده ، ونرى في هذا الحرص مانشأ من خلافات وما سفك من دماء وما نقض من عهود ومواثيق ، وكل ذلك منشؤه محبة الولد لأن الولد فتنة ؟ فما الذي دعا الحسين لتقديم ولده اول ضحية هاشمية في كربلاء ؟ الواقع ان الولد فتنة ، يظن به الوالد على الاخطار ، ولايعدل به غيره مهما كان خطيراً ، واولئك الذين كانوا يدفعون بأبنائهم الى صدور الامور ، انما كان سعيهم وراء المادة ، والمادة ليست بشيء في نظر الحسين وولده ، فكلاهما ساها في السعي لما هو أسمى من المادة ، وكلاهما ضربا مثلاً أعلى في البطولة والظن ، فالحسين ضرب اروع مثل في حب ولده ودفعه لنيل الخير ، وولده ضرب اروع مثل في التسابق لنيل الشهادة حين اعتقد انه على حق ، وحين اعتقد ان الخير كله في نيل الشهادة . بيد ان الحسين لم يكد يأذن لولده ، فيبتعد عنه خطوات حتى عاودته العاطفة الأبوية ، فنظر اليه نظر آيس منه ومع علمه انه لن يلبث بعده الا ساعة من نهار فقد ضعف جلد الوالد عن احتمال هذه الساعة القصيرة لانها عصيبة فأرخى عينيه وخنقته العبرة وصاح : اللهم كن انت الشهيد عليهم ، اللهم امنعهم بركات الارض يابن سعد قطع الله رحمك ولا بارك لك في امرك .

ومشى الفتى الى الموت ، مشية لاوان ولا وكل ولا حجم مشية تنبيء عما بين جنبيه من شجاعة واقدام ، مشية تيه وخيلاء تلك التي يحبها الله في هذه المواقف المشرفة بمقدار ما يمقتها في غيرها من المواقف ، افتراها مشية العاشق الواله الى معشوقه بعد لي المواعيد ؟ ام الحميم الى حميمه بعد فراق طويل وسفر بعيد ؟ يرف ولا رفيف الروض لعارض المطر ، ويرتاح ولا ولا ارتياح المدلج لشعاع القمر . أتراه يزف الى عروس هي محيا آماله ومحيى امانيه ، فهو يسعى لاجتلاء طلعتها باش الوجه بسام الثغر ؟ نعم انها الشهادة امنية كل حر ابي ! انها الغادة الحسناء تطالعه من افق عليائها وهاهو يسعى للحصول عليها بعد ان يمهرها من دمه ولحمه ثراباً سائغاً وطعاماً هنيئاً مريئاً لسمر الاسنة وبيض الصفاح ! نعم لقد مشى الفتى الى الموت بقدم ثابتة وقلب ملؤه ايمان ولا ادل على ثبات قلبه وقوة ايمانه ، وعظيم انفته من تلك الابيات التي كان يرددها في حملاته فقد كانت خلاصة الفكرة التي تبناها هو وابوه وكافة من معه من فتيان بني هاشم :

انا علي بن الحسين بن علي ... نحن وبيت الله اولى بالنبي
تالله لا يحكم فينا ابن الدعي ... أضرب بالسيف احامي عن ابي
ضرب غلام هاشمي علوي

وبعد حملات عاد الى ابيه يطلب جرعة ماء وهو يقول : أبتاه العطش قتلني وثقل الحديد قد اجهدني ، فهل من سبيل الى شربة من الماء ، اتقوى بها على قتال عدوي ؟ فيبكي ابوه ويشجعه فيعاود الكرة بعد الكرة على اعدائه ولكن القدر يسدد له سهماً بكف احد الاشقياء فيصرعه ، فيصرخ حينئذ مودعاً مستبشراً ، ولما كانت انياب الاسد تكالبت عليه الذئاب فمزقته إرباً إربا .

ومشى الاب الى مصرع ولده دامع العين محني الظهر ما يدري أيفرح له بالشهادة ، التي احرز قصب السبق في نيلها بين افراد اسرته ، ام يحزن لما ناله من حر الرمضاء ، وحر الحديد واوار الظمأ ، ثم يغلب عليه الأسى فيصيح : قتل الله قوماً قتلوك يا بني ، ما أجرأهم على الرحمن ، وعلى انتهاك حرمة الرسول على الدنيا بعدك العفا يا بني ثم يقبل بفتيانه فيقول